

الآن أدرك عظمة المكان ، وأحسنى لولا المهائم البيض
تلوح بها الهامات، والجلايب الضافية تحقق فيها القامات، لكأنى
أبرج عاصمة في ذيار الغرب ، قطار يؤج ويهج ، وناس يفل بهم
الزمن يخفون إلى الركوب أو ينزلون من التوديع .

ودق ناقوس الرحيل فوجف القطار ثم سارمت جنح الليل ،
وبانت مصر خفية في طي الدجى عنا ، وتغورت المصاييح كلها ابتعدنا ،
حتى عطفت بنا الدروب وهدهدنا في مجامعنا دوى القطار وهدير
آلاته ، وكاد النعاس يأخذ بمعاقد جفوننا لولا أنس الرفيقات .
ولولا مرح الطالبات واستفاضة التكتة على أطراف ألسنتهن ،
لغططنا في سبات عميق كما يفظ الطفل حين يترجج به السرير .

وكنا نتلفت بين الفينة والفينة ، فنطل من المنافذ ، والركب
يسرى كسهم زرع العلم عن قوس الحضارة ، فتمسك رؤوسنا عن
صفقة الريح ، ونحبس شعرنا عن التشعيت ، وهاج فينا الحنين
لمرأى النيل حين سكب القمر عليه شعاعه ، فانسحب كيف من
فضة ملول على أرض مصر ليدفع عنها عاديات الحن .

وأسفر الصبح على رؤوس النخيل يلتمع الندى على أوراقه
الخضر ، وتستدير سعفه فتبدو من بعيد كالقباب الصغيرة ، ومن
قريب كالمراوح المنشورة أو الظلال المرفوعة ، وصاغت لنا ذكاء
وجه النيل بالنهب فتألفت تلاميحه وتلوت على حواشيه ، ولاح
كرآة مجلوة تتمرى بها الطبيعة على نشيد طيبة الذى كان رقرق
الماء يردده لحناً مكروراً منذ الأزل باقياً على الأبد .

وأخذ يشارفنا الريف بصورة التشابه وألوانه السكائية ،
وقد انطابت بيوته بطوايح الروح المصرى القديم ، قلاحوه
سحر الوجوه عراض الناكب ، سكبوا على الأرض عرق الجبين ،
وعمركوها بكدح الأيدي ، وطفعت شفاههم بالمباسم لصباح
وضاح لا يأسم القروى الفرحة بلفائه ، ولولت هذا الفلاح من
سيده بسمة الشاكر ورحمة المالك وكان أبى الخنوع ، مطبوع
الليل للنظافة متقبلاً للإصلاح ، لعدأ عز أمثاله فى الدنيا ، لأن
ضفاف مصر الخيرة أجود أرض للزروع والإنبات

رحلة أسوان للسيدة وداد سكاكى

—>>>>>><<<<<<—

جئت مصر من الشام في يوم وبمض يوم ، نخب بنا مراكب
الحديد ، وأين منها مطايا البيد ! حتى بلغنا القاهرة فطالمتماواكب
النخيل على لمحات النيل ، وقد غمرت الآفاق شمس حمراء مازالت
منشورة النور ، وهاجة الضياء ، حتى ألتى بنا القطار على محطة
باب الحديد .

دخلت مصر يتنازعنى الوجوم للغربة ، والشوق لبلدة طالما
هفا الخيال إليها ، واستقرت بها نواى وقرت بها عيني ، فتعمرت
من النيل ، واستندرت بظل المقطم كما قال الشاعر ، وقد طوفت
بحدائق مصر ومناياها ، وما فاتنى مفاتن الجزيرة وساهج الطبيعة
فيها ، ثم وددت أن أملاً العين من ريفها ، وأستمع بنيلها الذى
يفيض على جنباتها ، فضيت فى رحلة فنية إلى أسوان ، أنشأها
المعهد العالى لمطالعات الفنون ، وهوبنية مجد للمرأة العربية ، وجامعة
ثقافة للمصريات ، أضفت عليه عميدته الفضلى السيدة عائشة إقبال
راشد من اسمها ونفسها رشداً وإقبالا .

فأدركنا القاهرة مع بضع عشرة فتاة من قسم الفنون الجميلة بالمعهد ،
تحدوهن صديقتاى الأستاذتان إنعام سعيد وعزيرة يوسف ،
وهما فى طليعة من أنجبت مصر من بناتها اللاتي ضمنن فى الجوانح
حب الوطن إلى ثقافة الترب الذى يزلن معاهده سنين للقانة
الفن ونباهة الفكر ، ثم عدن إلى الكنانة يطبعن الفتيات
المتعلقات بيماسم التجديد ، ويكشفن عن مواهبهن بالتوجيه
والتسديد .

فهذه محطة باب الحديد لتلقى مرة ثانية ، تحت عشية غير
مبتثنة ولا واجة ، منيرة بمصاييح تكسف الشمس بسطوعها ،
فأين نفسى الفرحة فى هذه الأمسية من قلبى المحزون حين بلغت
مصر منذ عام والوحدة مهيمنة علينا ؟

أما نساء الريف قوديمات الوجوه منتصبات القامات ، يستقبلن وجه النهار غاديات بالجرار على رؤوسهن ثم رائحات من سارب النيل ، وهن يشاركن الرجل في خدمة الأرض والأنعام ، وكلما وقف بنا القطار على ديار ذكرنى بأرض بلادى ، فمن مشارف الشام إلى مزارع بيروت يقف أولاد القرى لتقاء القطار في المحطات ، بأيديهم سلال أو قساع ممتلئة بالفواكه ، ينادون على يبيها ، ومنوف الباعة طوافون بحجر وإدام على سفر بغير زاد ، ولم أجد مثل هذا في مسيرى على درب أسوان .

وجزنا أرضاً في جوارها الأقصر الحافلة بالآثار ، فأمنت التحديق في تلك الجنبات التي عاشت في تضاعيفها وجوفها خيالات الأقدمين وأطيانهم ، وبقيت روعة الأطلال والآثار تدل عليهم ، وقد برزت من بعيد تلك العمدة الفرعونية ولاحت من بين أعمدة النخيل قلت : يا لله كأن الساعة أمضى بقطار حلب فأمر بعلبك ، وأرى عمدها هيكلاً الرومانى تترأى من بعيد من بين أشجار الجوز والشمس ، ورحت أذكر أرضاً على وجه الشرق تماورت عليها الأمم من رومان وإغريق وفينيق ، حتى بسط عليها الإسلام جناح الأمن والرحمة ووهبت لها العروبة لغة القرآن ، فكان عليها خیرامة أخرجت للناس ، وما تلتنى من تهويل هذا الخيال سوى بشرى الرقيقات باقتراب الوصول إلى أسوان .

وأسوان بلدة دون سعة ميداء - لبنان ، تسير ضفاف النيل في مبانيها وحدائقها ، وإمها لشعرية الطبيعة ، هادئة القامة ، هههافة النسيم .

على رؤوس رجالها عمام بيض لاثوها كأنهم المنود ، ونساؤها ملففات بالسواد ضاربات على وجوههن بحُمر مصرية ، سجت الخدين وأطلقت العينين .

هنالك دعينا إلى متزهات على النيل ، فبدائمة نهر مصر كما يسميه أهلها بحراً رحيب الصفحة مترامى الراحه ، وحملنا ذات صباح مركب بشراع مال بنا مترجماً على خطرات الريح ، فذكرت تحت شراعه وصف شوق « النيل بجاشى والفلك حمامة بيضاء

بجناح واحد » وسألت نفسى كيف يزهد شعراء مصر وهم غنية الأدب بوصف هذه المباهج والمغانى كما زهد شعراؤنا بالشام في وصف طبيعتها ومفاتها ، وما مصر سوى النيل الذى وهب لها البركة والحياة وكتب لها المجد والخلود ، فلو أحصى ما قال الفرنسيون عن نهر السين وحده لجاء أكثر من ديوان ، وما نظم القدامى والمحدثون من أم الحفصارة والثقافة في وصف بلادهم تضيق به الأسفار الضخام . ذلك دأبنا نحن الشرقيين ، فنتنا في جيوبنا دفين ، وشعورنا في جمال أرضنا وسماثنا مكبوت أو كين . ذكرت هذا في السفينة الشراعية التي نقلتنا إلى جزيرة الملك بأسوان ، التي اشتملت على حديقة واسعة فينائه ، ذات أدواح باسقة عتيقة ، وأشجار لفاء مشمرة حديثة الزرع إفريقية المنشأ ، وقد التفت غصونها وتكاثفت أوراقها ، وحشدت في الحديقة أفواف الزهر ونسقت مفارصها يد مكناع ، وفي هذه الجزيرة الفناء تناثرت طالبات الفنون على حفاى النيل وفوق مجاثم الصخور بأيديهن الألواح والتلاوين ، وطفقن يستوحين الطبيعة المصرية الخالصة ويتنافسن في رسم صورها الرائعة مرصاة لواهبن المتفتحة واكتساباً لتشجيع رئيسهن الفنية النابغة السيدة زينب عبده .

ولاحت لنا من على عدوة أسوان قبة الهواء تتناوح فيها الريح فوق جبل أسندت فيه رشيقات الأجسام ممن احتملن ثقل الأقدام على الرمال حتى أشرفن على النيل وطوفن بمقابر الأمراء ثم صعدن في الروابي والشرفات .

وزين لنا الإلام بالقبائل التي اعترلت في ضاحية من أسوان كأنها الصحراء ، قرأنا فيها رقص بناتها وترنح شيخاتها ، وإنها لزمزمت تسكن الدر وتعيش على الفطرة نائية عن الحضارة ، وفي ضاحية ثانية تقام كل خميس سوق عامة كسوق الجمعة في صالحيه دمشق ، يسط فيها للبيع كل أوعية ومتاع ، ويتنافس الباعة من نسوة ورجال في عرض بضاعتهم المزجاة ، ويزدحم المساومون حولها . ثم كان يوسنا الأخير في أعز ما عند أسوان وهو الخزان ، فركبنا سفينة تجرى بالبخار ، حملتنا في مؤنس الضحى على متن